

RESEARCH ARTICLE

The Visible and the Invisible in the Panegyric Poetry of Ibn al-Kattani

Ali Khaled Fadel *

Al-Muthanna University , College of Basic Education , Department of Arabic Language , Iraq

ABSTRACT

It is evident that the poetry of Ibn al-Kattani has long been neglected and its value underestimated, especially when compared with other poets who have received extensive attention in literary studies and critical compilations. Throughout history, poets have not been treated equally in literary scholarship; some have enjoyed prominence, while others have remained in the margins. This disparity raises an important question: why has critical focus been concentrated on one group of poets while another has been overlooked? The reasons may be varied, including media influence, personal biases, and the presence of dominant critical voices that resisted poetic styles that did not align with their tastes. At the same time, it is possible that the poet himself did not fully succeed in employing his poetic skill to bridge the gap between his work and the public, thereby creating an intellectual and cultural distance.

From this perspective, the present study seeks to uncover the poetic features of Ibn al-Kattani's work, with particular emphasis on his praise poetry (al-madih). This genre, distinguished by its eloquence and artistic merit, demonstrates qualities that make it worthy of careful study and critical examination.

Keywords: The Visible , The Invisible , Ibn al-Kattani , Visible Panegyrics , The Invisible Panegyric.

مقالة بحثية

المرئي واللامرئي في مدائح ابن الكتاني الشعرية

علي خالد فاضل *

جامعة المتنى ، كلية التربية الأساسية ، قسم اللغة العربية ، العراق

الملخص:

لا يخفى بأن شعر ابن الكتاني قد أهمل وبُخس حقه، قياساً بالشعراء الآخرين الذي أُشيع في حقهم أقلام الدراسات والمصنّفات الأدبية بحثاً وتأملاً؛ إذ لم يستو – تقارب وتفاوت- الشعراء في الدرس الأدبي على مرّ العصور، وهذا الملمح لربّما قد يشكّل في ذهن المتلقّي التساؤل الأكثر أهمية في الأعم الأغلب، بأنّ تسليط الضوء قد اختصّ بجانب واحد من العصور- الشعراء- وإغفال الصنف الآخر، لأسباب عدّة، منها ما يكون إعلامياً، أو شخصياً عائداً بالأساس إلى تعدد الذوات – المبغضة- المعارضة لنوعية شعر الشاعر التي لا تلقى في مصاف أذهانهم القبول والرضا، وفي الوقت نفسه ربّما أنّ الشاعر عينه لم يحسّن استعمال شاعريته وذكائه في استمالة شعور الآخر/الشعب، ممّا أحدث بُعداً فكرياً وثقافياً آل إلى إحداث فجوة بين الطرفين في الموقف الذي كان لابدّ منه - الشاعر- الوقوف عندها ووصفها والتأمل فيها.

ومن هذا المنطلق كان مقالنا البحثي يروم في محاولة إزالة الستار عن مكون ابن الكتاني الشعرية، ولاسيما في جزئية مهمّة من أجزاء الغرض الشعريّ – المدح- الذي ينضوي تحت حثياته الأوصاف- الكلمات- المرئية وغير المرئية.

الكلمات المفتاحية: المرئي ، اللامرئي ، ابن الكتاني ، المدائح المرئية ، المدحة غير المرئية.

Received 04-01- 2026; Revised 19-01 -2026; accepted 08-02- 2026 ; Available online 30-03- 2026.

* Corresponding author.

E-mail address: ali.khaled@mu.edu.iq (A.K.Fadel)

<https://doi.org/xx.xxxx/2572-5440.1091>

2572-5440/© 2025 The Author(s). Published by Al-Muthanna University. This is an open-access article under the CC BY-NC-SA license

(<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-sa/4.0>)

المقدّمة

العين البصرية [1]، ص 14/292 [18، ص 280] بخلاف (اللامرئي) الذي يحاكي المعنويات - الخيال والمجازات البلاغية - وهي أشبه بطريقة أو عملية التزوج طوعاً عن كلّ ما يتعلق بالأشياء البصرية المرئية، وهذا جوهر مضمون (ميرلوبونتي)، ولاسيما حين تحدّث في مفهوم فلسفته الأدبية عن ثنائية العلاقة ما بين المرئي واللامرئي؛ بأنّها النقطة الأضعف، بمعنى الرابط بين الأشياء المحسوسة المرئية، وغير المرئي من نحو عمليات الذهن/التفكير، والمجازات وغير ذلك؛ إذ إنّهُ عدّ الكتابة الشعرية تختلج شقين مهمين، أولاً: ما يكون فيه نمط الصورة متلازماً بين الأشياء الحية/ الواقعية والفكرة المراد إيضاحها بشكلٍ مرئي، وثانياً: ما اكتنف الغموض والإبهام عقل المتلقّي، ممّا يضطر إلى تحميل الصورة معنى آخر لموضع مغيب يحاول العقل البشري اكتشافه وإظهاره للناس، أو قلّ: اللامرئي هو ابتعاد الحسن الذاتي عن الأشياء الظاهرة بطريقة متعمدة ومدروسة [25]، ص 80، [175]، وعلى هذا الأساس سوف نفاش مدائح ابن الكتّاني من ناحيتين، أولاً: إظهار الكلمات الواقعية التي ترى بالعين المجردة، وثانياً: الاعتماد بشكلٍ كبير على الألفاظ المعنوية غير المرئية التي لا تختلجها دلالة المحسوس أو الملموس الظاهر للعيان/الناس.

المحور الثاني: لمحة عن ابن الكتّاني

يُعدّ من الشعراء المغمورين أو المهمشين؛ إذ لم تسلط الدراسات الأكاديمية الحديثة في الأعم الأغلب أنظارها حول الشاعر بإمعان وقراءة وافية، فما وجد من الأبحاث اليوم لا تكفي حقيقة أو تعكس مرآة ما جاء في شعره من نتاج، فهو يوسف بن سليمان بن صالح بن رهيح، ويكنى بأبي يعقوب، وأما شهرته فقد عُرفَ بـ ابن الكتّاني، نسبة إلى أنّ والده كان يعمل بالكتان وهو أحد أنواع الثياب المعروفة [26، ص 10/214] [13، ص 5/31] [15، ص 29/217] وينسب من ناحية البلدة إلى الرّحبة [7، ص 2/19] وبغداد، ومن القبيلة ينسب إلى مضر، حتى قيل في حقه: الرّحبي، والبغدادي، والمُضريّ [15، ص 29/217]؛ إذ ولدَ في مدينة السّلام/ بغداد، عام ست وثلاثين وخمسمائة للهجرة، ولم يحدّد بدقة عام وفاته فقد حصر ما بين ثمانية عشر وستمئة _ وتسع وعشرين وستمئة للهجرة [10، ص 3/233] [2، ص 2/154] [23، ص 19] وفي الوقت نفسه يصعب تحديد المدّة التي عاشها في حياته الأولى، ولاسيما من ناحية طفولته ونشأته إلا أنّ الشاعر قد ذكر في وثيقته التاريخية - الشعر - إشارة صريحة حول أثر اشتياقه لمنطقة الزوراء وهي إحدى مناطق بغداد المعروفة؛ إذ يقول [26، ص 10/217-218]: (

مجزوء الرمل)

يَسَا بَنِي الزُّورَاءِ كُؤُلاً مِنْكُمْ جَارِي وَتَرْبِي
خَيْرُوا بَغْدَادَ إِنْ أَخَّ رَتْ عَنْ بَغْدَادِ كُنْتِي
إِنِّي مُذْ غَبْتُ عَنْهَا بَيْنَ جَنَاتٍ وَقَضْبِ

ما زال الثّرات الأدبيّ الشعريّ يختلج بين طيّاته مادة ثرّة ومعيناً لا يُحدّ من مضامير الموضوعات الشعرية المختلفة التي لا تزال محطة مهمة تستقطب المتلقّي لغرض دراستها والبحث فيها، وخاصّة (ابن الكتّاني) المُمشمش أو قُلّ الخامل من قبل الكتّاب والدراسين قديماً وحديثاً، والحقيقة أنّ هذا الشاعر يستحقّ العناية والقراءة لما في شعره من الجودة والمتانة ما يؤهّله لأنّ يوضع بمصاف سائر الشعراء من بني عصره، فقد ترك وصمة مهمة في نتاج العصر الأيوبيّ، ولاسيما إبان حكم بني أيوب، حيث نشطت حركة الثقافة والأدب بمختلف مشاربها، فكان من الطبيعي أن نلحظ ارتقاء وازدهاراً لمجالات العلوم عامّة، والشعر خاصّة، ولاسيما إذا كان المسؤول الأول القائم على رفع منسوب الثقافة واحتوائه هم طبقة الحكام، والأمراء، والوزراء، وأعيان الدولة، فلا عجب أنّ نشاهد الشعراء يأتون من كلّ حدبٍ وصوب، راجياً عطفهم والتودّد إليهم، لغرض التكسب والتقرّب من مكاتبتهم الاجتماعية وغيرها.

ومن ثمّ ليس هنالك ديواناً لابن الكتّاني مطبوعاً ومحقّقاً بشكلٍ سليم، فلم يصل إلينا نتاجه كاملاً، إلاّ ما وجد في كتاب ابن الشّعار الموصليّ (ت 654هـ) المُسمّى (قلاند الجمال في فرائد شعراء هذا الزّمان) التي عوّلت عليها الباحثة (لبنى إسماعيل داود) في رسالتها الموسومة (شعر ابن الكتّاني جمع وتوثيق ودراسة) التي اعتمدت بشكلٍ كبير على فحوى ما دونهُ ابن الشّعار الموصليّ في إشاراتهِ إلى بعض المصادر التي ذكرت حياة الشاعر ونشأته، مع بعض القصائد المنفردة التي لا تعكس حقاً حجم نتاج ابن الكتّاني [26، ص 10/214-215] الشعرية في رحلته بين الأمصار، والتقرّب من الحكام والقادة وغيرهم، وفي الوقت نفسه لا تقف هذه الدراسة لبيان الهفوات التي وجدت بين طيّات هذه الرسالة - أنفة الذكر - التي تفتقد كثيراً إلى مقومات التحقيق، والدقة في نقل المعلومة من مصدرها الألم وغير ذلك.

وقد انقسمت هذه الدراسة إلى أربعة محاور رئيسية. فكان محورها الأول الموسوم بـ (المرئي واللامرئي بين المفهوم والاشتغال الأدبي)، وجاء المحور الثاني بعنوان (لمحة عن ابن الكتّاني)، وقد تناولت الدراسة في محورها الثالث (المدائح المرئية)، وعزّج المحور الرابع على (المدحة غير المرئية)، ثم خاتمة لأهم النتائج مردوفة تتابعاً بقائمتي الهوامش، والمصادر والمراجع. ومن هذا المنطلق عوّل الباحث على المنهج التحليلي الذي يجنح إلى تحليل النصوص المدحية واستنتاج ألفاظها بشقيها المرئي واللامرئي.

المحور الأول: المرئي واللامرئي بين المفهوم والاشتغال

الأدبي

في بادئ الأمر تكاد تتفق أغلب المعاجم العربية حول الدلالة اللغوية للفظ (المرئي) وهو اسم مفعول من رأى، أي كلّ ما يُرى عن طريق حاسة

ذلك ما جاء في شعره مادحًا الملك المسعود، معولًا في ذلك على إيراد الألفاظ المرثية؛ إذ يقول [26، ص 215/10-216]: (المتقارب)

إِذَا سَأَلَ النَّاسُ مَا فِي يَدِيهِ يَرَى ذَاكَ شُحًّا مِّنَ السَّائِلِ
يَرَى بَذْلَ وَجْهِكَ عِنْدَ السُّؤَالِ لِي أَكْثَرَ مِّنَ ذَلِكَ النَّائِلِ
وَيَحْتَقِرُّ الْأَسَدَ يَوْمَ الْبِرَالِ وَلَوْ أَنَّهَا عَدَدُ الْوَابِلِ
وَيَقْتُلُ الْخَيْلَ مَسْرُودَةً تَهْفُ بِكَلِّ فَتَى بِسَائِلِ
لَقَدْ عَلِمَ الْبَيْضَ ضَرْبَ الطَّلَا وَسَمَرَ الْقَنَا طَعْنَ فِي الْجَاهِلِ

أوضح ابن الكتاني في قسّمات هذا النصّ بعض الأجزاء والصفات المرثية من نحو (اليد، والوجه، والأسد، والخيل، والبيض) فكلمها تروم في دلالتها المادية إلى إبراز فضائل الممدوح وعطاياها أمام المقابل/السائل، وفي الوقت نفسه يبرز مكانة الممدوح وقوته في ساحة الوغى بأنّها تفوق أغلب ما يتصف به سائر الحكام الآخرين، ومن المرثيات الأخرى ما جاء في شعره مادحًا الملك الصّالح محمود بن محمد؛ إذ يقول [26، ص 220/10]:

(المنسرح)

وَمَجْلِسٍ رَصَعَتْ جَوَانِبُهُ عَلِيَاكَ يَا نَاصِرَ الدُّنَا ذَهَبَا
تَدُورُ كَاسَاتُهُ وَقَدْ عَقَدَ الْـ مَزْجُ مِنَ الدَّرِّ حَوْلَهَا حَبِيْبَا
مَعَ قَنِيَةٍ خُلُوةٍ إِذَا عَبِثَتْ أَكْفُهَا خَلَتْ جَحْفَلًا لَجِبَا
تَبَسُّمٌ عَنِ لَوْلُؤٍ كَأَنَّ بُوَهُ مِسْكًَا فَتِيْقًا وَعَنْبَرًا وَكِبَا
تُجَلِّي عَلَى مَالِكٍ يَسُودُ عَلَى الْـ عَالَمِ أُمَّا كَرِيْمَةً وَأَبَا

شكّل حضور المكان/المجلس وما فيه من أشياء مادية ثمينة من نحو (الكأس، والدّر، والفتاة، والكف) وغيرها، صورًا مرثية هدفها بثّ الراحة النفسية والشعورية في كنف الممدوح، وليس هذا فحسب؛ إذ يعرض ابن الكتاني أصالة الممدوح/الصّالح ورفعته من حيث نسب الإوالدين- الأب/ والأم- كلاهما من الأجساد المادية الحيّة/المرثية، وفي الوقت نفسه نحظ بأنّ الشاعر حذا حذو الشعراء القدامى من ناحية مزج الغزل والخمرة مع غرض المدح، وهي ظاهرة قد شاعت في أغلب النصوص الشعرية القديمة [21، ص 93][5، ص 184][3، ص 77][14، ص 30]، ومن تمظهرات الصور المرثية الأخرى قول ابن الكتاني مادحًا الأمير أسد الدين المصري الذي عُرفَ برجاحة العقل، وطيب الشمائل [26، ص 241/10-242]: (الهنج)

كَذَاكَ الْقَالِقُ الْهَامَاتِ أَعْيِ الْأَسَدَ الْمِصْرِي
كَرِيْمًا غَرَّقَ الْعَالَمَ فِي الْبَرِّ مِنَ الْـ
وَيَحْيِي الْبَيْضَ بِالْبَيْضِ وَيَحْيِي السُّمْرَ بِالسُّمْرِ
تَرَاهُ وَدَمَّ الْمَالِ عَلَى صَارِمِهِ يَجْرِي

تتّشج تجربة الشاعر - بأضواء المبالغة- الظاهرة في النصّ أعلاه عن طريق (البرّ، والبيض، والسمر، والمال) فكلمها دلالات توجي بأنّ الممدوح قد

لم يكن ابن الكتاني من أسرة عريقة النسب والجاه، وإنّما كان فقيرًا يتردّد في أحضان الحكام والوزراء الدولة الأيوبية [17، ص 136] لغرض العطاء والتكسب، فهو مصدر رزقه الوحيد في الأعمّ الأغلب، وهذا ما جاء في قوله [26، ص 10/229]: (مجزوء الرمل)

مَنْزِلِي قَفْرٌ يَبَابُ مَا رَأَى لِيْلًا مِرَاجَا
وَقُدُورِي فَارِغَاتٌ مَا حَوَتْ قَطُّ دَجَاجَا
وَزَيْدِي الْبَيْتَ لَمْ تَعُدْ سَرِفَ يَوْمًا زِيرِبَاجَا

يبدو أنّ حياة ابن الكتاني كان يكتنفها نوع من الغموض وعدم الوضوح في كثير من مفاصل حياته؛ إذ لم تكشف لنا صحائف الكتب الأولى عن خيوط ولادته ونشأته بصورة واضحة ودقيقة إلاّ في مقطوعة واحدة أنفة الذكر، ولا عن المسببات الرئيسة التي أدت به إلى كثرة الترحال بين الأمصار - العراق، ومصر، والشام- أكان لغرض العطاء من أيدي الحكام فعلاً، أم ثمة أسباب أخرى قد تكون نفسية مرتبطة بأثر البيئة وجمال طبيعتها الخلابة، ممّا أثر استهواؤها في نفسه، وقد تكون ثقافية طالبا المعرفة وروح التطلع على ثقافات الشعوب الأخرى، وهذه التساؤلات - عالقة في ذهن المتلقّي- وغيرها كلّها راجعة بالأساس إلى غياب شعر الشاعر وعدم وصول نتاجه الشعريّ كاملاً؛ إذ طمست معالمه الأدبية واندثرت أسوة بغيره من الشعراء أبناء جلدته أو السابقين له.

المحور الثالث: المدائح المرثية

أولاً: الإعجاب بالآخر (الملك، والأمير، والوزير)

لا يخفى بأنّ ظاهرة التكسب بالشعر قد لازمت أغلب الشعراء وعلى مَرِّ العصور، ولاسيّما أولئك الذين أرادوا التقرب في مدائحهم إلى الملوك والأمراء ورؤساء القبائل، فكان من الطبيعي أن تنتشر هذه الظاهرة في الواقع الحيّ، لغرض التكسب والتقرب من مكانتهم الاجتماعية وغير ذلك، على الرغم من المعرفة التي شاعت في أغلب أمّات الكتب حول الخصائل التي يتحلّى بها الإنسان العربي من نحو عزة النفس والشهامة وغيرها [22، ص 31][12، ص 240][19، ص 143]، وعلى هذا الأساس نجد ظاهرة التكسب بالشعر حاضرة وبقوة عند ابن الكتاني، وقد بالغ في مدح [20، ص 4/126] [9، ص 1/403] [6، ص 219] الملوك والأمراء والطبقات الأخرى من أعيان الدولة، لغرض الحصول على عطاياهم، وتقرب منهم، فهو مصدر رزقه الوحيد إن صح التعبير، وبهذا نجد شاعرنا يقدم أغلب الفضائل الكريمة، والصفات الخلقية والخلقية وإحاطتها بالممدوح، وفي الوقت نفسه لا نجدّه يبتعد عمّا جاء به غيره من الشعراء [4، ص 1/151] [8، ص 49] [11، ص 190] [3، ص 102] [24، ص 15] الذين سبقوه من حيث البناء والمضمون المدحي في استعمالهم لعامة الكلمات من نحو الأصل، والنسب، والجود والشجاعة وغيرها، وخير دليل على

ويأ من حلّ في العليم محلاً العليم من قلمي
ويأ من فاق في الأفا سق فوق السببة الشهب
سرى ذكرك في البلدا من بين العجم والعرب

في هذا النصّ يكشف الشاعر عن الكلمات المرئية (التشريح، والشهب)، والأماكن التي تمثّلت بـ (العجم، والعرب) خواص ما يتمتّع به الممدوح ابتداءً بتمهينه مهنة الطبّ الأكثر قبولاً لدى المجتمعات عامّة؛ بسبب حاجة الإنسان إليها، وفي الوقت نفسه غالى ابن الكتّاني بمكانة الممدوح/الطبيب؛ إذ جعل ذكره يرتقي فوق (السبعة الشهب)، وإن سمعته قد ملأت الأفاق، وتردد صداؤه في أرجاء العرب والعجم.

يمكن القول: بأنّ المدائح- المرئية- التي خصّصت الملوك والأمراء والوزراء كانت ذات حضوراً أكبر -كمّاً وكيفاً-، قياساً بالأشعار – المدحية المرئية- التي قيلت في شأن أعيان المجتمع فهي قليلة جداً أو قلّ منخفضة في حضورها الشعريّ.

المحور الرابع: المدحة غير المرئية

أولاً: الإعجاب بالطبقات العليا

في هذه الفقرة نحاول أن نعرّض الأشعار المدحية الخاصة بـ (الملوك، والأمراء، والوزراء) التي تكلّلتها الألفاظ غير المرئية، من نحو قول ابن الكتّاني مادحاً الملك سيف الدّين غازي بن مودود بن زنكي [26، ص 229/10-230]: (الكامل)

فَصَفَاتُ سَيْفِ الدِّينِ بَطْرُنَا إِبْرَادُهَا فَتَصَوُّغُهَا مَدْحًا
مَنْ كُلِّ قَافِيَةٍ مُهَذَبَةٍ تُعْبِي الرُّوَاةَ وَتُخْرِسُ الفُصْحَا
عَايِنْتُهَا فَوَجَدْتُهَا حَمَاءً وَصَنَعْتُهَا فَتَمَثَّلَتْ مَلْحَا
تَجَلُّو عَلَى الأَسْمَاعِ إِنْ سُمِعَتْ صَمَمًا وَعَنْ مُهْجَاتِنَا تَرَحَّحَا
تَبْقَى مُؤَبَّدَةً يُقْبَلُهَا فَمَنْ كُلِّ مِنْ بِنْيَانِهَا صَدْحَا

لم يكشف ابن الكتّاني في النصّ أعلاه عن مضمون دلالة (الصفات) وماهيتها، وإنّما عرضها بشكلٍ عام غير مرئي، جاعلاً المتلقّي يتربّص ويتأمل صورته السامية وما تؤوّل إليه، أو ربّما أراد من ذلك بأنّ صفات ممدوحه طيبة الذكر تستريح لها كلّ نفسٍ فتجعلها مطمئنة ومسرورة، وفي الوقت نفسه نراه يُفحم بعض الكلمات الأخرى – غير الملموسة- التي تمثّلت بـ (الطرب، والسمع، والصدق) لغرض بيان مكانة الممدوح ومنزلته المرموقة، فلم يستطع أحد من (الرواة، والفصحاء) وغيرهم، بأنّ يأتيوا في وصف سيف الدّين غازي كما فعل ابن الكتّاني في مدح له، فكلمهم قد وقفوا عاجزين/خُرساء أمامه. وبعد ذلك يطالعنا الشاعر في مدح الملك المؤيد، لما قال [26، ص 232/10]: (المقارِب)

جَعَلْتَ بِنُعْمَاكَ يَا ابْنَ المُلُوكِ أَعَادِي لِي مِنْ طَرِيقِ الحَسَدِ
وكيف لا يحسدوني وقد مننت عليّ بأبّ البَلَدِ

أغرق بكرمه وجوده العالم/الحياة، فهو الجواد الهمام الشهم في العطاء، وفي الوقت نفسه تراه يبين صفاته البطولية مختزلاً أغلب الألفاظ المدحية المفرطة بحق الآخر/ أسد الدّين المصري فهو الحامي الوطيس في الشدائد والصعاب، واتقاء الأذى وردّ الخصوم/ الأعداء [27، ص 251]، فأفضت دلالة التعظيم وصورة الغلو إلى تحقيق تلك النتيجة وثابتها بحق ممدوحه، جاعلاً من تكرار الأجناس اللفظية/المرئية – البرّ بالبرّ، والبيض بالبيض، والسمر بالسمر - الظاهرة في شعره أنف الذكر، صورة تستحق الإشادة والاهتمام نتيجة ما يتمتّع به الآخر/ الممدوح من سماتٍ وخصال مثلى قلّ نظيرها عند الآخر.

ثانياً: الانجذاب نحو الآخر (الشخصيات المرموقة)

في هذه الفقرة تروم الدراسة الوقوف على مدائح ابن الكتّاني التي أنشدتها في حقّ بعض الرموز المهمّة من وجهاء المجتمع، معوّلاً في ذلك على الكلمات المرئية، من نحو قول الشاعر مادحاً القاضي شمس الدّين [26، ص 223/10]: (الطويل)

تَفَلُّ رِمَاحِ الخَطِّ أَقْلَامِ خَطِّهِ وَبُرْسُلُهَا دُونَ السِّهَامِ تُصِيبُ
يُمُولُ حَتَّى لَا تَرَى الدَّهْرَ مُعْبِسًا وَيُخَصِّبُ حَتَّى لَا يُقَالَ جَدِيبُ
لَهُ مِنْ عِمَادِ الدِّينِ بَيْتٌ عِمَادُهُ رَفِيعٌ وَصَدْرٌ لِلوفُودِ رَحِيبُ

علق ابن الكتّاني أماله وأمنيته على عاتق مدح القاضي شمس الدّين، لعلّه يلقى ما يكتنف مشاعر وأحاسيسه من كرم هذا القاضي وعطاياه الوفيرة، التي عرضها بصورة مرئية يختلجها نوع من المبالغة المدحية من نحو (الرماح، والخط، والأقلام، والسهم، والمكان/البيت)، فهذه الدلالة المرئيات غابتها إبراز مكانة الممدوح والثناء عليه، مصوراً عدله وورعه وجوده، أو ربّما أراد من ذلك بيان عدل هذا القاضي وحكمته في رفع الأذى ومساوئ الظلم عن كاهل الناس، لغرض أن يحقّق بذلك عنصر العدالة والتوازن بين أفراد المجتمع، فهذه اليد ممدودة من أجل العطاء وتحقيق الراحة والانصاف بين أبناء الجلدة الواحدة. وفي موضعٍ آخر من شعره يعرض ابن الكتّاني المدحية التي أنشدتها في سعد الدّين أحد رجال الدولة، لما قال [26، ص 254/10]: (مجزوء الكامل)

الوَاهِبِ الأَمْوَالِ لِلْسَّخِيِّ ———— وَوَالِ الكَفِّ السَّخِيِّ
فَحَبَاهُ يُعْنِي مَا دَحِيحٌ ———— إِذَا أَتَوْهُ عَنِ الحَبِيِّ

يبدو أنّ هذه الصورة لا تحتاج إلى جهدٍ عسير يبذله المتلقّي لغرض تفكيك هويته والتعرّف عليه، فقد أوضحت الكلمات المرئية – الأموال، والكفّ- ما يؤمن إليه ابن الكتّاني في بيان شخصية الممدوح المثلى، فهو شخص كريم واسع العطاء، ولم يبخل أو يجفل حقّ سائلاً قد قصد بابه قط. ومن ثمّ نراه في لوحةٍ أخرى يمتدح أحد العلماء/الطبّ شرف الدّين

الطبيب؛ إذ يقول [26، ص 218/10]: (مجزوء الهزج)

سَدِيدَ الدَّوْلَةِ المَعْرُوفَ ———— فَتَ بالتَّشْرِيحِ فِي الطَّبِّ

البصرية، وإنما عمد إليها الشاعر لغرض بيان صورة الممدوح المثلى التي تسري في عقول الناس على مَرِّ العصور؛ إذ إنَّ ذكره المرموق لا يندثر مهما تقادمت عليه الأيام والأزمان، فهو ثابت المنبت والشهرة الطيبة كأنَّه جبل(العسيب) في مكانته وشموخه. وفي موضعٍ آخر راح ابن الكتّاني يكشف عما خلفه به الممدوح/أسد الدّين المصريّ من ألمٍ وحرقة إزاء غيابه عنه؛ إذ يقول[26، ص 241/10]: (الهنج)

أَلَا يَا أَسَدَ الدِّينِ وَحَقَّ لَيْلَةَ القَدْرِ
لَقَدْ أَوْحَشَنِي شَخْصٌ لَكَ فِي صَحْوِي وَفِي سُكْرِي

إنَّ النداء الذي أطلقه الشاعر ابتداءً في قسمات -صدر- البيت الأول الذي يومئ عن أثر حجم هذا الاشتياق وتلّفه لصورة الآخر/ الممدوح، ممّا أدّى به إلى القسم والاستعانة بـ (ليلة القدر) العظيمة؛ إذ إنَّ مدلول (القدر) لا يُرى بالعين المجردة، وإنّما هي دلالة توحى بأنَّ هذا اليوم- الليل- تمارس فيه مجموعة من الطقوس العبادية المختلفة، وأهمها صورة نزول القرآن الكريم [16، ص 37-39]، ومن ثمّ يتابع ابن الكتّاني في سرد ما يختلج مشاعره وأحاسيسه من تلهّفٍ وحنين لـ (أسد الدّين)، وذلك عن طريق كلمة (الوحشة) - غير المرئية - التي حملت في مدلولها إشارة إلى الوحدة والغربة القاسية التي يعانها الشاعر في صحوه وسكره إزاء غياب الآخر عنه. ومن الصور المدحبة الأخرى ما جاء في لوحته مادحاً الملك العزيز عماد الدّين عثمان بن يوسف المصري؛ إذ يقول [26، ص 239/10]: (الخفيف)

كَمْ أَنَا جِيكَ فِي الرِّقَاعِ وَفِكْرِي فِي مَعَالِيكَ يَنْظُمُ الأشْعَارَا
وَأَعَالِي مِنَ المَحَبَّةِ فِي المَدْحِ لَعَلِّي أَهْرُ مِنْكَ التَّمَارَا

يحاول ابن الكتّاني استعطاف الممدوح ولفت انتباهه عن طريق (مناجاته) - غير المرئية- له طول الوقت، غاية الظفر ما بحوزته من جوائز ثمينة (الرقاع)، تستحق أن تطول معها الأشعار/ المدح بما يتوافق مع الخيرات التي تقدم له من قبل الآخر/ الممدوح الذي عُرفَ بالسخاء والكرم. وفي موضعٍ آخر يسجل ابن الكتّاني مدحبة أنشدتها بحق الملك النّاصر في الشّام، لما قال [26، ص 233/10]: (الخفيف)

مَا تَنَنَانِي عَنِ الثَّنَاءِ البِعَادُ الهَوَى وَالوِدَادُ ذَاكَ الوِدَادُ
كَيْفَ أَنَسَى تِلْكَ اللِّيَالِي وَأَيَّآ مِي بِنُعْمَاكَ كَلُّهَا أَعْيَادُ

أشادَ الشاعر على بَرِّ ممدوحه، ولاسيّما عن طريق استعماله بعض الكلمات - الثناء والهوى والوداد والأعياد- غير المرئية التي حملت إيماءً يومئ بأنَّ الممدوح كان واسع العطاء والبذخ؛ إذ إنَّ صورته لم تمح أو تتلاشى هيأتها عن مخيلة ابن الكتّاني طوال الأيام التي قضاها في كنف الملك ورعايته، فأنعامة لا تحصى أو تُعدّ، ولذلك شبه تلك اللحظات الوقتية/ الأيام التي عاشها بقربه بأنّها كـ (الأعياد) لما فيها من الراحة

أرى كُلمًا زدني رفعةً يُمُوتُونَ فِي كُلِّ يَوْمٍ كَمَدُ

يفصح ابن الكتّاني في هذا النصّ عن هُوية الممدوح السامية التي اتصفت بـ (النعم) بدلالاتها غير المرئية أو الواضحة لدى المتلقّي، فلم يصحّ الشاعر تصريحًا ظاهرًا عن الأموال والجوائز التي قُدمت له من قبل الملك المؤيد، وإنّما أخفى ذلك خوفًا من الحساد والكارهين له الذين يكونون له العداة والبغض، وفي الوقت نفسه لا تزال يد الآخر/ الممدوح واسعة العطاء، ونعمائه تزداد عليه وتكثر مع مرور الوقت، وفي موضعٍ آخر راح ابن الكتّاني يعرض قيمة ما يتمتّع به الممدوح صارم الدّين من كرم وجه، وهذا ما جاء في قوله [26، ص 234/10]: (مجزوء الرجن)

أرْقُلُ مِنْ جُودِكَ فِي ذِيلِ قَبَا جَسَدِي
وليس لي عندك من يطرب من نشيبي
تحبّر الحمام في الـ غصون من تغريدي
كأنّي نائِحَةٌ تُفجّع بالتّعديدي

قدّم الشاعر في لوحته الشعرية أعلاه مجموعة من الأصوات غير المرئية التي تمثلت بـ (يطرب، ونشيدي، وتغريدي، ونائحة)، إيماءً بقدر اشتياقه لنفس الممدوح وعطائه غير المحدود، أو ربّما لجوء ابن الكتّاني إلى هذه الأصوات المختلفة، ولاسيّما صوت الحمام هو لبيان مدى تعلقه بالآخر/ الممدوح؛ إذ إنَّ هذا الأخير قد تحلّى بالكرم والسماحة والمروءة. ومن تصورات المدحة غير المرئية ما جاء في قريض الشاعر مادحًا أبو الفوارس مرهف بن أسامة بن منقذ؛ إذ يقول [26، ص 240/10]: (المنسرح)

جئتُ إلى بابك الكريم وقَد نقتحُ فِكْرِي فِي مَدْحِكُمْ دُرَا
تضوُّعٌ من رِيهَا إِذَا اضْطَرَبَتْ مِسْكَاً فَتِيحًا وَعَنْبَرًا عَطِرَا

يُثني ابن الكتّاني في هذا النصّ على صنيع ممدوحه، ولاسيّما عن طريق بعض الكلمات غير المرئية - الكرم والفكر والعطر/ الروائح- التي وظّفها لغرض بثّ الراحة والطمأنينة في كنف الممدوح، راجيًا من هذا الأخير أن ينظر إليه بعين الرأفة والرّحمة والعطف من خيره الوفير على قاصده/الشاعر، أو ربّما أراد من ذلك تشبيهه عطاء الآخر/ الممدوح الذي ذاع صيته في الأرجاء بمثل انتشار الروائح الزكية على كلّ نفس إنسانية جاءت إليه قاصدة كرمه وسخائه. ومن الصور الأخرى التي أنشدتها ابن الكتّاني في مدح الصّارم خطبها المصري، لما قال [26، ص 220/10]: (مجزوء الرمل)

فَابِقْ عُمَرَ الدَّهْرِ مَا عُمَد مِرِّ فِي الدُّنْيَا عَسِيْبُ
وَصُومِ الأَعْوَامِ يَا مَنْ صَدْرُهُ صَدْرٌ رَحِيْبُ

لا يخفى بأنَّ (العمر، والدهر) من الأشياء- الأوصاف- التي لا ترى بالعين

والسرور والطمأنينة الشيء العظيم.

ثانياً: مدح الشخصيات الأخرى

تحاول الدراسة هنا تسليط الضوء على بعض الشخصيات المرموقة في المجتمع، أو قلّ من كان لها أثر الاتصال بالسلطة – المسؤول والقاضي - التي أنشد في حضرته ابن الكتّاني بعض الأشعار المدحية، معوّلاً في ذلك على إيراد الكلمات غير المرئية، وهذا ما كشفته صورة الشاعر في مدح أحد رجال الدولة/ بدر الدين كتّان؛ إذ يقول [26، ص 228/10]: (مجزوء الرمل)

قُلْ لِيُبْدِرِ الدِّينِ يَأْبَدُ رُ أَتَى العَيْدُ وَفَاجِئًا
يَا كَيْمِيًّا عَلمَ الأَسْمَاءِ سَادَ فِي الحَرْبِ الهَيْبَا
قَدْ مَضَى الصَّوْمُ هَزِيمًا مِنْ يَدِ الفِطْرِ وَضَا جَا

وهنا يستعين ابن الكتّاني بالألفاظ غير المرئية – العيد، والصوم- لغرض استدراك رضا الممدوح وعطفه، ابتداءً مُهَيَّبًا إيّاه بمجيء العيد – الفطر- المبارك، وانتهاء مدّة (الصوم)، وفي الوقت نفسه تراه يشيد بشجاعة بدر الدّين وإقدامه في سوح الوغى، أو ربّما تخرج هذه الصورة إلى قراءة أخرى؛ إذ إنّ دلالة (الصوم) كناية عن الأعداء الخاسرين، بينما حملت دلالة (الفطر) تلويحاً عن قوّة الممدوح وعزمه في ردع الخصوم والحطّ منهم، وإزاحة هيأة كلّ من يعترض طريقه بمثل ما يفعل العيد في زوال الصوم. ومن تمظهرات الصورة غير المرئية قول ابن الكتّاني في مدح القاضي شمس الدين [26، ص 223/10]: (الطويل)

تَمَلَّكَ رِقًّا لَا يُبَاعُ فَرَقُّ لِي وَزَيْرٌ يَحَلِّ المَشْكَلاتِ لِـيُـيَبِّ
فَتَى أَيْعَ الأَيَّامَ والعَامَ مَا جَلَّ وَأَضْحَكَ سِنَّ الدَّهْرِ وَهُوَ قَطُوبٌ

لقد وظّف الشاعر الألفاظ غير المرئية في البيتين أعلاه، من نحو (المشكلة، ولييب، والأيام، والدهر)، فكّلها دلالات أراد عن طريقها ابن الكتّاني أن يستعرض خصال ممدوحه/القاضي الذي عُرف بالفطنة، والكياسة، ورجاحة العقل في حلّ (المشكلات) المجتمعية عامّة، سواء أكانت هذه العقبات عصبية أم غير ذلك.

ومن هذا المنطلق كان حضور الألفاظ غير المرئية في مدائح الطبقات العليا الحاكمة أكثر شمولية ونطاقاً في شعر ابن الكتّاني، قياساً بالنظير الأخرى - الشخصيات الأخرى- التي كانت أقل عدداً وذكرًا من الأول.

الخاتمة

• سجّلت الكلمات المرئية حضورها الفاعل كمّاً ونوعاً في مدائح ابن الكتّاني الشعريّة، ولاسيّما تلك التي خصّت الطبقات الحاكمة؛ إذ إنّه وجد عن طريق هذه الألفاظ المرئية الوسيلة والغاية التي تخدم تجربته المدحية في كسب رضا الآخر وتقرب من سلطانه ونعمائه الوفير.

• بينما انخفضت الكلمات المرئية نوعاً ما في أشعاره المدحية التي أنشدها في ميدان بعض الشخصيات المرموقة في المجتمع – القاضي والطبيب والمسؤول- ولعلّ السبب في ذلك عائداً لقلّة عطايا هؤلاء وبذخهم في تقديم الجوائز الثمينة له، فكان من الطبيعي أن نلاحظ ندرة ورود المدائح المرئية في حقهم، أو أنّهم لا يكثرثون أو يعيرون أهمية للشعر بشكل عام، ممّا أدّى بآبن الكتّاني إلى الابتعاد وعدم قول الشعر في حضرتهم قياساً بمثل ما فعله مع الطبقات العليا.

• حضرت الألفاظ غير المرئية في مدح الأمير والوزير بنسبة أكبر – كمّاً وكيفاً- صدارة الحدث، ويلها بدرجة ضئيلة المدحة غير المرئية التي خصّت الشخصيات المجتمعية – المتفاوتة في المقام والمنصب المؤسّساتي أو الحكومي- الأخرى، ولعلّ السبب وراء هذا الانخفاض الحادّ بأنّ الشاعر لم يلق في مصاف هؤلاء ما كان يرمي إليه من العطاء والكسب والاستجداء وغير ذلك، وبهذا لا نجدّه يكثرث أو يبالي إلى أمرهم وشخصهم بمثل ما كان يقف ويتودّد- شعريّاً- أمام الطبقات العليا الحاكمة.

المصادر والمراجع

1. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفرريقي المصري (ت711هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د.ط). (د.ت).
2. ابن الوردي (ت749هـ)، تحقيق: أحمد رفعت البدرائي، تنمة المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1970م.
3. الأخطل، تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين، ديوان الأخطل، دار الكتب العلمية، بيروت- ط2، 1994م.
4. الأعشى الكبير، تحقيق: محمود إبراهيم محمد الرضواني، ديوان الأعشى الكبير، وزارة الثقافة والفنون والتراث، مطبعة قطر الوطنية، ط1، 2010م.
5. الأنصاري، حسان بن ثابت: عبدا مهنا، ديوان حسان بن ثابت، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط2، 1994م.
6. الجرجاني، الشريف علي بن محمد، كتاب التعريفات، مكتبة لبنان ساحة رياض صالح، بيروت، د0ط، 1985م.
7. الجزري، أبو الحسن محمد بن محمد الشيباني (ت630هـ)، اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت، (د.ط)، 1980م.
8. الجمعي، أبو دهب، تحقيق: عبد العظيم عبد المحسن، ديوان الجمعي، رواية أبو عمرو الشيباني، مطبعة القضاء، النجف الأشرف، (ط1)، (د.ت).
9. الجوهري، إسماعيل بن حماد، تحقيق: د. أحمد عبد الغفور عطار، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ط3، 1979م.

10. الحموي، أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت (ت626هـ)، معجم البلدان: دار الفكر، بيروت، (د.ط.)، 1968م.
11. الخطيم، قيس، تحقيق: د. ناصر الدين الأسد، ديوان قيس بن الخطيم، دار صادر، بيروت، (د.ط.)، (د0ت).
12. الخفاجي، محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992م.
13. السمعاني، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي (ت562هـ)، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، الأنساب، دار الفكر، بيروت، ط1، 1998م.
14. صرذُر: تحقيق: د. محمد سيد علي عبد العال، ديوان صرذُر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 2008م.
15. الصفدي، صلاح الدين (ت764هـ): تحقيق: ماهر جرار، الوافي بالوفيات، الشركة المتحدة للتوزيع، ط1، 1997م.
16. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت310هـ)، تحقيق: محمود محمد شاکر، جامع البيان من تأويل أي القرآن، دار المعارف، بمصر، (د.ط.)، 1957م.
17. العبود، عبد الكريم توفيق، الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد (ت547-656هـ): دار الحرية- وزارة الإعلام، بغداد، (د.ط.)، 1976م.
18. عمر، أحمد مختار وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2008م.
19. الغدامي، عبد الله محمد، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان، ط3، 2005م.
20. الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت170هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الحميد هندراوي، كتاب العين (مُرتباً على حروف المعجم)، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، ط1، 2003م.
21. القيس، امرؤ، تحقيق: عبد الرحمن المصطاوي، ديوان امرؤ القيس، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط2، 2004م.
22. القيسي، نوري حمودي، دراسات في الشعر الجاهلي، ساعدت جامعة بغداد على نشره، (د.ط.)، 1972م.
23. الكتّاني، جمع وتوثيق ودراسة، لبني إسماعيل داود: (رسالة)، شعر ابن الكتّاني، جامعة الخليل- فلسطين، 2011م.
24. كشاجم، محمود بن الحسين (ت360هـ)، تحقيق: د. عبد الواحد شعلان، ديوان كشاجم، مكتبة الخانجي، مصر، ط1، 1997م.
25. موريس مرلوبونتي، ترجمة: د. عبد العزيز العبادي، المرئي واللامرئي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2008م.
26. الموصلي، ابن الشّعار (ت654هـ)، تحقيق: د. كامل سلمان الجبوري، قلائد الجمال في فرائد شعراء هذا الزّمان، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2005م.
27. يوسف، د. حسني عبد الجليل، الأدب الجاهلي، قضايا، وفنون، ونصوص، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2001م.